مقدمة الطبعة العربية

التاريخ علم حي وواحة غضة تتفيأ في ظلالها العلوم اجتماعية كانت أم سياسية أم طبيعية الخ . والتاريخ واجهة الحضارة الانسانية ، فلا عجب من ثم ان استولى على قلوب هواة المعرفة وغدت له المنزلة الرفيعة عند الطالب والعالم وجمهرة الشعب . وقد اهتم مؤلفو الغرب الاهتمام الكلي لتبيان مراحل تطور الشعوب ورقيها وربط نتائجها بأسبابها ، فكانت من ثم ابحاثهم واقعية ومنطقية استلهموا فيها الآثار من رسم ونقش وبناء الخ والاستنتاج المنطقي اذ العاديات بحد ذاتها مادة لا حياة فيها ولا تسلسل ، يحييها العقل وينسقها ويفسرها فتنطق اذ ذاك لتعلمنا بما ابقاه السلف تراثاً قيما للخلف . ولا يعرف هذا التطور هوادة أو نهاية اذ تسير سنة الرقي بالانسان من حسن الى أحسن ويبني بنو آدم التاريخ لبنة لبنة ، ولن يتم هذ الطور الحضاري الا مع آخر حي عاقل .

وما أفدح خطأ من يعتبر التاريخ سلسلة حوادث وسجلاً لأسماء تنتثر هنا وهناك في الزمان والمكان اذ التاريخ كما سبق القول علم له أساليبه ومبادئه وفلسفته التي أوجد لحمتها وسداها العربي الخالد ابن خلدون . وليست الحضارة – مادة التاريخ – ثمرة جهود فرد او شعب او مجموعة امم ، بل هي صنع الانسان في مختلف عصوره القديمة والحديثة والمستقبلة ، يتضافر ويتكافل لخلقها مع أخيه الانسان للسير مرحلة مرحلة والانتقال من حسن الى أحسن . وقد تولى أمة اهتمامها لناحية حضارية دون الأخرى وتسهم من ثم على قدر طاقتها في تشييد صرح هذه الحضارة الانسانية العالمية التي ينعم بها الجميع على تفاوت تبعاً للمؤهلات والظروف . فلا فضل والحالة هذه لشعب على آخر اذ لا حياة ولا استقرار ولا استمرار للجهد الانساني الكبير ان لم يعضده الافراد في أي قطر وجدوا وفي أي وقت عاشوا . وهكذا تظهر بوضوح كلي تلك الصفة الاجتماعية – الاشتراكية ... التي تربط الانسان بأخيه الانسان مهما اختلف اللون وتميز العرق وشسعت المسافات . لذا ما أوهى قول بعضهم « الحضارة الشرقية » أو « الحضارة الغربية » اذ الحضارة الانسانية للانسان ونتيجة جهد الانسان وفي خدمة الانسان !

والبحث في تاريخ الحضارة – وان تجزأت اقسامها دون ان تتصادم ! – هو نسبياً حديث

العهد ، اذ كثيراً ما كان يحصر المؤلفون عنايتهم بدرس حضارة شعبهم أو قطرهم دون استقراء حضارة الغير والغوص عن جوهرها ومعالمها مهما بلغت شأواً في الرقي والتقدم . ولكن أخذ المؤرخون في القرنين التاسع عشر والعشرين بتعاليم ابن خلدون فأولوا عنايتهم المجاري الحضارية والثقافية عند مختلف الامم مهما اختلف الزمان والمكان فكوّنوا من أبحاثهم والحالة هذه مادة موحدة « تاريخ الحضارات » وان تميزت المراحل واختلفت الحلقات .

وقد عثرنا على موسوعات عدة في اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية تشرح باسهاب منطق هذه الحضارة الانسانية الجماعية ومادتها ، مؤلفة من شتاتها وحدة تلذ وتروق وتفيد . ولا يسعنا مفاضلة هذه على تلك اذ لكل منها ميزات وخصائص . ولكننا مع هذا توقفنا عند هذه الموسوعة الكبرى باللغة الفرنسية التي أصدرتها « دار المطبوعات الجامعية الفرنسية » ، وأشرف عليها العلامة الاستاذ موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، وأسهم بتدبيج أجزائها نخبة من المؤرخين الثقة المشهود لهم بالمعرفة والتدقيق فأعجبنا بها الاعجاب الشديد سيما وان كل مؤلف أخذ على عاتقه درس حضارة القطر أو الشعب أو العصر الذي أشبعه تمحيصاً . وعمق الابحاث التي وردت في هذه المجموعة وجديتها من حيث تقصي الحقائق والوقوف على الآثار وتحليلها منطقياً وربطها مع زميلاتها ربطاً محكماً لاظهار مختلف مراحل التطور الحضاري الانساني حملنا على انتخاب هذه الموسوعة وتقديمها لقراء الضاد دون ان نغمط حق زميلاتها أو ننتقص من صفاتها .

وتأتي هذه المجموعة الفرنسية على درس الحقائق التاريخية منذ أقدم عصور الحضارة الانسانية وأعرق الشعوب ، فتشرح الشرح العلمي المستفيض الوقائع والحوادث والأحداث التي عاشتها الامم في العالمين القديم والجديد على ممر الأجيال والقرون... وهكذا تبدو هذه المجموعة سجلاً حافلاً من حيث الواقع والعلم لتاريخ الانسان منذ أطواره الأولى المتوغلة في القدم حتى عصرنا الحاضر دون التوقف عند هذه الأمة أو ذاك البلد فتظهر اذ ذاك حضارتنا المعاصرة ابنة الجهود الغابرة .

ومن مميزات هذه المجموعة انها أتت شاملة كاملة فوصفت لنا طرق العيش ونظام الحكم والاسس الاجتماعية والاساليب التجارية والمعتقدات الدينية والنشاطات الفكرية والاطوار الفنية الخ ... فلم تترك شاردة إلا ولمتها أو واردة إلا واحلتها في اطار واقعي ومنطقي عز نظيره ، فغدت من ثم معلماً وهادياً لابن القرن العشرين ، ان استوعبها وقف على حقيقة تاريخ الانسان . وقد بسطت مجموعتنا المذكورة هذه المادة الخصبة باسلوب رشيق متسلسل ، وضمت من الخرائط والرسوم العدد الوافر ، ووقفت على ما اكتشفه رواد وعلماء الآثار حتى سنة ١٩٦١ ، وأعملت القياس والمنطق أو التخمين — عندما يعجز المنطق والأثر المادي — ... حتى غدا معها التاريخ علماً حياً شيقاً .

واننا لا نلقي القول على عواهنه بل نضع أمام القارىء اللبيب عناوين أجزاء هذه الموسوعة وأسماء مؤلفيها فيتأكد بأن القوس أعطيت باريها .

المجلد الأول : الشرق واليونان القديمة *L'Orient et la Grèce Antique*

لمؤلفيه اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس ، وجانين أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثاني : روما وامبراطوريتها Rome et son Empire

لمؤلفيه : اندريه ايمار André Aymard, عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس وجانين اوبويه Jeannine Anboyer امينة متحف غيمه .

المجلد الثالث : القرون الوسطى Le Moyen Age

اتساع الشرق ومولد الحضارة الغربية

لمؤلفه : ادوار بروى Edouard Perroy استاذ في السوربون .

المجلد الرابع : القرنان السادس عشر والسابع عشر Les XVI et XVII siècles

تقدم الحضارة الاوروبية وتضعضع الشرق (١٤٩٢ – ١٧١٥)

لمؤلفه : رولان مونيه Roland Mausnier استاذ في السوربون .

المجلد الخامس : القرن الثامن عشر Le XVIII siècle

عصر النور (١٧١٥ – ١٨١٥)

لمؤلفيه : رولان مونيه Roland Mausnier وارنست لابروس Ernest Labrousse استاذين في السوربون .

المجلد السادس : القرن التاسع عشر Le XIX siècle

ذروة الاتساع الاوروبي (١٨١٥ – ١٩١٤)

لمؤلفه روبير شنيرب Robert Schnerb استاذ الصف الاول العالي في ليسه كليرمون – فرّان

المجلد السابع : العهد المعاصر L'Epoque Contemporaine

بحثاً عن حضارة جديدة

لمؤلفه موريس كروزيه Maurice Crouzet ، مفتش المعارف العام في فرنسا

ويؤسفنا القول إن المكتبة العربية تفتقر الى مثل هـذه الموسوعات المفيدة العلمية على غنى تراثنا القومي ووفرة كتبه . وكم تشوقنا الى الوقوف على مراحل الحضارة العالميـــة من خلال مؤلفات عربية يضعها أبناء الضاد أنفسهم ، وما كان العرب يوماً الا سباقين في مضمار المعرفة والعلم والتأليف ، وقد استنار الغرب بكتبهم الموضوعة أو المنقولة . وما كان أسعدنا لو ان أبنـاء

عالمنا العربي قاموا بمثل هذه الدروس الموسوعية بالاستناد الى غنى شرقنا – مهد الحضارة ومنهل الأمم – وتفتحهم على الثقافات العالميـة .

ورغبة في سد هذه الثغرة والتعاون مع من أخذوا على عاتقهم محو هذا النقص نقدم لعالمنا العربي أبحاث هذه الموسوعة الفرنسية في لغة الآباء والاجداد ... مع ما في الأمر من صعوبة وارهاق .

ولا مجال هنا للبحث في طرق النقل أو الترجمة . فقد ارتأى بعضهم في هذا المجال ان يزيدوا على النص الاصلي أو ينقصوه أو يفسروه طبقاً لرغبة أو تنويراً للقارىء او تقويماً لأفكار المؤلف. أما نحن فقد تقيدنا تقيداً أميناً بنص الموسوعة الفرنسي ونقلناه نقلاً حرفياً – دون اعتبار صحة الآراء أو بطلها – وان كنا لا نجاري المؤلف في بعض آراء او نظريات او استنتاجات ، اذ اننا نقدم لقراء الضاد ما قاله المؤلف الفرنسي على علاته وهناته ؛ وتشويه الأفكار أو تحويرها أمر غير مستحب وان كان تقويمها ضرورياً ... ولكن في بحث مستقل ! ووضعنا نصب أعيننا مجـاراة النص الفرنسي كما ورد دون تقديم أو تأخير – جهد المستطاع – على ما في هذا النص من تشابك صرفي وتركيب نحوي واستدارات في السبك وتطويـل في الجمل . وحرصنا الحرص الكلي على التقيد بروح المؤلف واستدراكاته وتميزاته البيانيـة حتى في بسط الاسلوب مع ما في الامر من جمل اعتراضية ونقط وفواصل الخ . لذا قد يبدو هنا وهناك بعض الوهن في حسن التركيب من حيث قواعد اللغة والادب ؛ ولا نرى غضاضة في ذلك ، اذ المؤرخ – ولو كان أديباً بالسليقة – لا يتوخى التنميق وجمال التعبير بـل سرد الحقيقة المجردة دون خيال مجنح او لجوء الى أساليب بيانية . ونقل مثل هـــذه التراكيب والعبارات الى لغة الضاد – مع المحافظة على الكلمة روحاً ونصاً – قـد يضطرنا بعض المرار الى تخطي حسن السبك والاسلوب العربيين بغية التوفيق بـين الاصل الفرنسي ومرادفه العربي ، اذ لكل لغة نفس وتقنية نحوية .

واعتمدنا في نقل أسماء العلـم على اصولها ومواطنها الأولية مراعين قدر المستطاع ما غدا أمراً متداولاً . وهكذا سعينا جهدنا لكتابة الاسم اليوناني مثلاً كما ورد في لغته الاساسية ... باستثناء الاسماء التي جرى التعارف في كتابتها ولفظها على امر مستقر كاسم ارسطو بدل ارسطوطاليس . وقد استمحنا لنفسنا أيضاً ، عند تعذر كل وسيلة ، ان نعتمد كأساس الكلمة الفرنسية الـــتي وردت في النص المنقول . وحرصاً على الدقة والامانة اللفظية لجأنا الى سفارة الجمهورية الهندية في بيروت لتعيننا على حسن كتابة الاسماء الهندية الصرفة فلاقينا منها تجاوباً وحسن مساعدة تذكر فتشكر ، اذ غني عن البيان بأن الحرف اللاتيني قـــد لا يعبر التعبير الصحيح الدقيق عن كيفية لفظ وكتابة الكلمة الغريبة عنه هندية كانت أم عربية ام صينية .

ولا بد من الجهر أيضاً بأنه من الصعب الوقوف على كلمة عربية واحدة لبعض المصطلحـات الفرنسية التي نحتوها للتعبير عن مبدإ فلسفي أو عقيـــدة دينية مما أهاب بنا الى تأدية معناها بأكثر من لفظة أو احياناً بنقش كلمة عربية – مثلاً استغرق نسبة الى تبني حضارة الاغريق –

قد توافق لفظ المصطلح الفرنسي، او باعتماد طرق الاشتقاق اللغوية العربية، ولا نرى في الأمر خرقاً لقاعدة او تجاوزاً على صلاحية .

واننا وقد ألزمنا أنفسنا بأمانة النقل نرى من واجبنا استطراداً لما قيل أعلاه بأن نؤكد من جديد بأننا لا نتبنى ولا نؤيد شخصياً بعض النظريات التي ساقها المؤلف ، دينية كانت أم اجتماعية ، او بعض المبادىء السياسية والوقائع التاريخية التي اعتبرها المؤلف كحقائق . هذا مع لفت النظر الى ان تفسير الاحداث والحوادث التاريخية قد يتطور، وقد يناقض عالم تاريخي ما قاله زميل له على اعتبار ان المصادر والآثار لم تستنفذ بعد تماماً؛ وقد يكشف الغد وثائق تقلب بعض الاعتبارات التاريخية رأساً على عقب . ومن الحق القول إن مؤلفي هذا الكتاب يجهران صراحة بأن الرأي الذي ابدياه هو اجتهاد قد يحوله ويحوره ما سيعثر عليه عالم آخر من آثار أو يحلل من رموز كتابية لا تزال تجهلها الى يومنا .

ومع علمنا بوجود كتب تاريخية عربية قيمة نقلت عن لغات غربية يسعدنا بأن نقدم لقراء الضاد المجلد الأول من موسوعة موريس كروزيه التاريخية هادفين الى اعلاء كلمة العلم وشاكرين لدار « منشورات عويدات » في بيروت ما لاقينا من تشجيع ، هذه الدار التي أتحفت المكتبة العربية ولا تزال بكتبها الفلسفية والقانونية والاجتماعية والقصصية ، والتي لن تألو جهداً لتقديم سائر أجزاء موسوعة كروزيه التاريخية للعالم العربي .

والمولى ولي التوفيق وعليه الاتكال .

هيئة الترجمة

مقدمة عامة
لتاريخ الحضارات العام

انها لاول مرة على ما نعلم ، يصدر في تاريخ الادب الفرنسي ، كتاب بهـــذا العنوان يتوج مجموعة من الكتب تتجه للرأي العام ، بمثل هذا الشمول . فهل في الامر ما يدعو للاستغراب ، بعد ان سبق للوسيان فيفر واوضح كيف ان كلمة « حضارة » دخلت مصطلح العلوم متأخرة في الربع الاخير من القرن الثـــامن عشر ، وان مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الامثل ولم يستقر مشتمله الأوفى الا بعد ذلك بكثير .

وعلى نقيض البربرية ، عنى المصطلح الجديد ، على لسان فلاسفة القرن الثـامن عشر العقليين وكتّابه الشعوبيين ومن لفّ لفهم ، مجموعة من الخطط والنظم القمينة باشاعة النـــظام والسلام والسعادة ، وبتطوير البشرية الفكري والادبي ، وبتأمين انتصار الانوار . فالحضارة والحـــالة هذه ، « وضع مثالي وحقيقي في آن واحد ، عقلي وطبيعي ... ، سببي وغائي » .

وراح القرن التاسع عشر بدوره يمكّن لهذه الفكرة الاوروبية المحور ويرسّخ لها في الاذهان. ووضع تقدم العـلوم والتكنولوجيا بين ايدي الاوروبيين طاقة مادية بلغ من شأنها ما ادخل في روعهم تسامي حضارتهم وافضليتها على سواها من الحضارات الاخرى . وهكذا « اخـذ القرن التاسع عشر ينظر الى حضارته كالحضارة البشرية الفضلى » ، وراح يعتقد ان من حقه فرض هذه النظرية على العالم كله بالقوة حتى تبناها وعمل بها ونهج عليها . الا ان طمأنينة الضمير الاوروبي لم تتعد هذا القرن ، وقد انتهى امرهـا الآن ، كما يستدل من التعابير التي درجوا على اصطلاحها تشاؤماً ، اذ كثيراً ما يتردد على شفاه الكتـــاب عبارات كهذه : « ازمة الحضـــارة » ، و « الحضارة في خطر » و « الحضارة على المحك » .

لهذه الاسباب ، فتاريخ الحضارة في مفهومه القومي الرحب ، هـــذا التاريخ الذي يتناول بالدرس سجل الجماعات البشرية والمدنيـــات ، ويرى في هذا التراث المتأتي الينا مراحل التطور الذي عرفته الانسانية في رقيها الصاعد ، ويحصي على كل جماعة ما اسدته من خير للتراث المشترك ، يصعب تجريده من غاية تجعل الحضارة وقفاً علينا نحن الاوروبيين ابناء القرن العشرين .

صحيح اننا شهدنا ، في غضون العصور الاخيرة ، تحت تأثير اوروبا الحاسم بنفسها تواري او زوال معالم حضارات كثيرة واصيلة ، وذلك اقله تحت ستار الدعوة الملحة لتوحيد نظم الحياة .

ولهذا اخذ يتبدى لنا ان هنالك حضارة موحدة آخذة بالتكون ، مستوحاة على الاخص من الغرب في مدلوله الاوسع . كل هذا صحيح . غير ان هذا التطور نحو الوحدة لم يتم الا من عهد قريب ، وهذه الالوف من السنين التي يتألف منها تاريخ البشرية ، مرت بادوار من الركود والقهقرى ، وباطوار من الانعزالية والقطيعة ، بحيث تفرض علينا الحكمة العزوف عن مثل هذه النظرية .

●

اما ان نكون امام حضارات متعددة لا حضارة واحدة وحيدة ليس بينها ما يدعي الرئاسة المحتومة ، فهذا امر مسلم به اليوم بين علماء الاجناس البشرية والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين اذ يقر هؤلاء بالاجماع ان لكل جماعة بشرية على شيء من النظام ، مدنيتها الخاصة حتى ان للاقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها .

كذلك من الامور المسلم بها اليوم عدم الاخذ بالنظرية الضيقة التي تقول بتاريخ واحد للحضارة .

فقد شهدنا بالفعل في السنوات العشرين - وفي فرنسا على الاخص ، منذ ظهور البحث الداوي الذي وضعه مارسل موس – تطوراً حوّل انظارنا من نظام سام وحيد للحضارات يفرض مقولات سامية – الفنون والآداب ، والذوق حتى والعلم – ليردها الى مظاهر الواقع الحياتي ، المادية غالباً والاقل بروزاً واشراقاً . فقد حاولوا ، تارة عن طريق المؤثرات الثقافية (فكرة ، اداة ، مهارة فنية ، وصفة مطبخية ، حركة في الملبس) وطوراً عن طريق الحقب الثقافية (الاسس الجغرافية للحضارات) ان يستبدلوا الدروس التقليدية ، بدروس موضوعية لا اثر فيها لهذه التجريدات الغيبية المليئة بالاحكام المقومة . وهكذا حاولوا بمعزل عن الناس وعن اعمالهم (مشاهير الرجال وآثارهم الباقية) وبمعزل عن تيارات العوامل المؤثرة ان يحددوا الشروط المادية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي كثيراً ما عالجها التاريخ التقليدي معالجة سقيمة او مر بها على الاقل مروراً عابراً

نرى في ماضي البشرية وتاريخها السحيق ، حضارات عديدة لكل منها مجموعة من الافكار والنظم السياسية ، ومستوى من العيش المادي والتقنية ، وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلائق الاجتماعية على اختلاف مظاهرها : الدينية والفكرية والفنية . ليس من قصد الاجزاء التي تنتظم هذه المجموعة التي تظهر بعنوان « تاريخ الحضارات » ان تتبنى هذه او تلك من النظريات الضيقة التي جيء بها باسم العلم ، او هذا المعنى الخاص على حساب غيره او باستثناء غيره . فالتاريخ ليس إيثاراً او تخيراً ، بل استحضاراً للماضي بكل مظاهره وواقعه . فعلينا اذاً ان نصف بدقة المظاهر الحياتية المتعددة التي تؤلف مجتمعة كلا متجانساً وان نستحضرها للاذهان في وحدتها الزمنية والمكانية ، كما يتوجب علينا ان ندرس المؤثرات التي تفاعلت بها

هذه الحضارات وانفعلت . هذا ما يهدف اليه التاريخ العام الذي وضعناه للحضارات .

●

نقطة الانطلاق عندنا جهد موصول سداه التحاليل ولحمتـــه الوصف بغية ابراز الخصائص المفرّدة لكل حضارة ، وتحديد ما اسدته من خدمة للتراث الانساني النامي . هل بالامكان الذهاب الى ما هو ابعد ، ورسم خط بياني منحن لكل من هذه الحضارات تستبين معه مراحل التقدم او التـــأخر التي قطعتها ؟ وهل بالاستطاعة السير الى ابعد لنستخلص من هذه المشاهد والمرئيات الملاحظات التي توحي بهـا النواميس التي تنهض عليها الصيرورة الاجتماعية التي رسمتها هذه الحضارات المتباينة ؟ ان محاولات التأليف العظيمة الباهرة التي شهدناها حديثاً والتي قامت على اساس من التفسير الجدلي في الازمنة الحاضرة والمستقبل الطالع، واتفاق الرأي لدى المؤرخين وعلماء الاجتماع ، كل ذلك اوضح بصورة جليـــة ضرورة الاعتصام بالفطنة في مجالات البحث الحديثة العهد هذه . ان تصنيف الحضارات ، ومبادىء « الرقي » و « التـأخر » كل ذلك يجعل للتطور البشري مدلولاً ميتافيزيقياً ، يجب ان يبقى بطبيعة تعريفه بعيداً عن المؤرخ .

وستحاول هذه المجموعة ان تتفادى ما يتصل « بفلسفة التاريخ »، هذه الفلسفة التي تبقى دوماً من العنديات العرضة ابداً للحدس والجدل ؛ يهمنا قبل كل شيء ان نصف وان نفسر الامور، لا ان نصدر احكاماً قوامها لون من الوان الحضارة المثالية .

●

تجاهلت البشرية وحدتها مدة طويلة. فلم يكن هنالك بشرية واحدة بل بشريات وحضارات. فقد ارسيت في اواخر القرن الخامس عشر مع الاكتشافات الجغرافية العظيمة الحاسمة الاسس والامكانات التي تدعم وحدة كرتنا الارضية ، هذه الوحدة التي كان علينـا تشييدها فعلاً . ففي القرن الثامن عشر تمكن الانسان من استكشاف مجاهل اوقيانيا واوستراليا ، كما قام خلال القرن التاسع عشر باكتشاف المناطق المجهولة في افريقيا وقطبي الارض الشمالي والجنوبي . ووحـــدة عالمنا هذا كانت تبقى وحدة منقوصة لو لم تقم على اسس علمية، وكانت بقيت مجزوءة مخرومة لو لم ينتظمها اقتصاد عالمي متماسك . هل بدا شيء من هذا قبل ظهور السفن الشراعية في القرن الثامن عشر ، او بالاحرى ، قبل الثورة التي اطلقها البخـار ، هذه الثورة التي لم تبلغ اوجها الا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ لا وايم الحق . وعلى هذا يجب ان نقيس احداث التاريخ العام ، اذ يطالعنا في البدء السحيق ، فجر الحضارات الاولى ، والانتقال بالسير البشري من عسور مـا قبل التاريخ الى التاريخ ، فتعاقب التواريخ والمدنيات على اساس من الترابط والتفاعل الى ان طلع علينا عالم موحد .

ان عرض هذه المادة التاريخية الوافرة في المجلدات السبعة التي تتألف منها هذه المجموعة اثار في وجهنا صعوبات دقيقة . « فالسرعة التي يتكون بهـا التاريخ » ونمو معارفنا وازديادها حتّما

علينا ان نخص كل جزء من هذه الاجزاء ، دوراً من ادوار التاريخ العام يقصر او يطول كلما دنونا من التاريخ المعاصر .

لم يكن في الامكان ان نستعرض في المجلد الاول من هذه المجموعة ، ونحن بعد عند عتبة التاريخ ، بروز هذه الحضارات وتطورها وفقاً للترتيب الزمني ونتولى درسها وإجالة النظر فيها وتتبع احداثها من ذاتها وبذاتها باعتبارها كتلة قائمة . ومن اين نأتي بتواريخ صادقة صحيحة لكل هذه المدنيات المتعاقبة ، بما فيها مدنيات الهند والشرق الاقصى ؟ وكيف نتفادى التكرار في مثل هذه الحال ؟ هنالك مدنيتان من اضخم المدنيات التي ظهرت في التاريخ القديم : المدنية المصرية ومدنية بلاد ما بين النهرين ، تؤلفان معاً كتلتين متجانستين بالرغم مما بينهما من فوارق وخصائص مفردة ، استمرتا اكثر من ثلاثة آلاف سنة . فدرسهما درساً افقياً في ادوار تاريخية منفصلة امر يتعذر الاخذ به والوقوف عنده . ان هذه المدنيات وغيرها مما نضرب صفحاً عن ذكره هنا قلما تأثرت بعوامل من الخارج ، وان حدث ذلك احياناً اقتصر التأثر فيها على الاطراف الخارجية ، وظهور المدنيات العارضة وتطورها في الأقطار المجاورة لهذه المدنيات قد حال دونها او أخّر ظهورها معارك طاحنة دارت رحاها بين هذه المدنيات الضخمة ، في نفس هذه الاقطار. لا شك في ان نهجاً من هذا النوع كان افضى بنا الى صورة ناقصة حيناً، ممزقة احيانا لعدم تكافؤ معلوماتنا من جهة او لتفاوت ظاهر بين هذه المدنيات مستوى وشأناً .

وقد حدث ، بعد ذلك بكثير ، اي بعد اوائل العهد الميلادي ، في نطاق العالم القديم على الأقل — : آسيا واوروبا وافريقيا — اولى المحاولات لمقارنة هذه التواريخ ولربطها بعضاً ببعض فجاءت اجزاؤها متنافرة غير محكمة كما ان هذه التواريخ بقيت اجيالاً طوالاً متشابكة متراكبة.

الا ان توطد العلاقات بين الشعوب واشتداد اواصرها بين مختلف الحكومات والحضارات المنعزلة فيما بينها من قبل ، والعثور على المزيد من الأصول والوثائق التاريخية كل ذلك مكّن للأخذ من جديد بنظرية الاطوار الزمنية والاعتصام بها واتاح للمؤرخ ان يشدد ، اكثر فاكثر، على بعض الاحداث والشخصيات التاريخية البارزة ، واظهار ما لها من اضواء كاشفة . ولكن لم يلبث ان اتضح شيئاً فشيئاً وجوب التحرز من التبسط في السرد والاستطراد في القول والوصف ، اذ ان المهم في هذا كله ان يرسم المؤرخ للحقبة التاريخية التي يتناولها صورة واضحة جلية ، ما امكن ، تأتلف كل الائتلاف وتنسجم مع الاكتشافات العلمية الحديثة .

ولا بد للقارىء الواعي من ان يلاحظ ان كثيراً من الاحداث التاريخية التي يحلو لبعض الكتب التقليدية سردها بالتفصيل قد ضرب صفحاً عنها او لم يؤتَ على ذكرها الا لماماً . ولا يتوهمن احد قط اننا « ننتقص من اهمية الاحداث الثابتة الآخذ بعضها برقاب البعض وفقاً للتسلسل الزمني » او انه سها عن البال تعريف التاريخ كما حدده البعض من انه « علم الواقع المحيّز » . فنحن اول من يقدر المحاذير المترتبة على « تجريد التاريخ من الواقع القائم »، ولا يدور في خلدنا ، في ردة عكسية ضد مفهوم التاريخ قديماً الذي كان لا يهتم الا للأمور السياسية

والحربية والدبلوماسية ، ان نغضي عن ذكر هذه الوقائع التي تؤلف أسس المدنيات والحضارات البشرية . فنحن اول من يعترف باهميـة هذه الوقائع ، وقد حرصنـا على احلالها المحل اللائق في تضاعيف هذا التاريخ وتقدير الدور البالغ الذي كان لها في الحضارات المتعاقبة . وقد همنا منها، في الدرجة الاولى الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، وشددنا بنوع خاص ، على التطور التقني وعلى القضايا التي تتصل بصميم السكان، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا . ان حرصنا الشديد الا" نولي هذه المجموعة من المجلدات اهمية اكثر ممـا تستحق ، واليسر الذي يستطيع معه البـاحث التوثق من الاحداث السياسية المعروفة ، كل ذلك حـدا بنا احياناً الى التنويه بهـا في الجداول الزمنية الترتيب او في الابزائيات التي تكتّون الاطار الوضعي لتاريخ الحضارات.

ان تاريخ الحضارات الذي يعنى بوضعه هنا انما يتجه في الدرجة الاولى من الرأي العـام المثقف وليس من العلمـاء الاخصائيين . ولذا فقـد ضربنا صفحـاً عن ذكر الشواهد والمراجع والمناقشات الجدلية التي جيء بها لاثبات رأي او لدحضه . فقد حرصنا على اثبات قائمة موجزة متواضعة من المصادر والمراجع يمكن لمن يرغب في التوسع اعتمادها والركون اليها . اما الصور والرسوم ، فتهدف لتوضيح النص باعادة جانب من الجو التاريخي الذي سيطر على هذه المدنيات دون ان يكون الغرض الاول منها التوثيق .

●

لست ارى بعد هذا ، موجباً يدعوني لتقديم المؤلفين الذين قبـلوا القيام بوضع هذا التاريخ العام للحضارات البشرية ، اذ لهم من مؤلفـاتهم ومن آثارهم في حقل التعليم والتدريس ما احلهم المحل اللائق بين زملائهم المؤرخين في فرنسا . وهل لي ان ازيد هنا ان هذه المجموعة من المجلدات التي يتألف منها هذا التاريخ لم يكن في الامـكان تحقيقها ، لو لم يقم منذ ربع قرن تيـار جارف يتمثل على اشده في المأسوف على علمه المرحوم مارك بلوك الذي له الفضل الاكبر في تجديد الدراسات التاريخية في فرنسا ، فسدد الابحـاث ووجهها شطر تاريخ مبسط يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعـلوم البشرية الاخرى ؟ فقد كان من اولى واجباتنا هنا ان ننوه بفضل الرواد في هذا الحقـل الذين مهدوا السبل امامنـا .

موريس كروزيه

مدخل

من وحدة العصر الظرافي الى التنوّع التاريخي

ظهور الانسان

يضيع ظهور الانسان على الارض بين العصور الجيولوجية السحيقة . وقد اصبح ظهوره ممكناً منذ الدور الجيولوجي الثالث إذ كانت ظهرت فصائل البهموث . ويتمرجع هذا الظهور في أواخر الدور الجيولوجي الثالث ، عندما كانت تسرح في بطاح الارض وقرح وحدات من فصائل الفيل الجنوبي . ويتأكد هـــذا ويثبت في الطور الاول من الاطوار ما بين الثلجية الاربعة التي عرفها الدور الجيولوجي الرابع . أما اذا ما حاولنا ان نحدد الازمنة والاوقات لهذا الظهور فلا بد من ان يأخذنا الدوار . وراح بعض علماء الهيئة في تعليلهم الادوار الجليدية وتقدير مداها ، يقدرون الفترة الاعدادية للدور الرابع بمائة وخمسين الف سنـــة ، بينما يجعل غيرهم امتداد هذه الحقبة لاكثر من خمسمائة الف او ستمائة الف سنة . اما الدور الجيولوجي الثالث فيقدر بعضهم امتداد حقبته ثلاثين مليون سنـة . ولا نعرف تاريخ اي شعب من شعوب الارض يرجع الى ما قبل الميلاد باربعة آلاف سنة . ويعتري الواحد منا قشعريرة عندما ترقص امام عينيه ارقام مثل ٤٢٤٥ — ٤٢٤٢ قبـــل الميلاد وهو التاريخ الذي يحدده التقويم المصري القديم ، بدءاً للتاريخ المصري القديم .

فالانسان في مثل هذه الحِقَب المتهالكة في القِدم هو الانسان الحيوان ، او الانسان الشبيه بالبشر . امّا الانسان المنتصب القوام ، ولا سيما الانسان العاقل ، المدرك ، فلم يظهرا إلا بعـــد ذلك بوقت طويل. فالانسان العامل، صَنْعُ اليدين، الذي يستعمل الادوات ويتحسسها، قد تقدم الاول كما تقدمه بدوره جنس من شبه الآدميين. وكثيراً ما اكتشف علماء الآثار بعض مصنوعاته دون ان يعثروا على شيء من بقاياه العظمية ، وان وجدوا شيئاً منها فهو نادر ومبعثر . والذي يجعل اهمية خاصة للانسان الصيني الذي عثروا على بقاياه في تشو كو تيان ، على بعد ١٠٠ كيلومتر الى الجنوب من مدينـة بكين ، وللانسان القرد الذي اكتشفوا بقاياه في بلدة ترينيل ، على مقربة من جاڤا هو ما يجعل العلماء قادرين على ان يتتبعوا ، في هذين المكانين ، بعض معالم التطور الذي بلغ معه الانسان منزلة الانسان العاقل . اما الاماكن الأخرى ، فعلى عكس ذلك تماماً كما يظهر

في افريقيا الجنوبية مع الانسان القد د الجنوبي ، في الترانسفال وفي اوروبا ، حيث يوجد فجوات من الفراغ محيرة .

ففي اوروبا على الأخص نجهل كل شيء عن إنسان عصور ما بين الجليدية إلا بعض بقايا نادرة جداً من هيكله العظمي الرميم ، دقيقة الحجم . وقد عرّف العلماء المصنوعات الرئيسية المتخلفة عن هذا الانسان ، بمصنوعات العصر الحجري المشظّى . أمـا انسان العصر الجيولوجي الرابع او العصر الموستري كما اصطلحوا على تسميته فهو معروف اكثر باكثر ، إذ انه يتمثل بانسان العصر النياندرثالي الذي انتشر على مساحات واسعة ، هو هو نفسه تقريباً بشكله الواحـد ، أينما وجد : في اوروبا الغربية ، وفي جميع انحاء افريقيا او في البلدان الشرق الاوسطية ، ومع ذلك فهو ليس من جنس الانسان الحقيقي . وهكذا نرى أنفسنا امام جنس آدمي جديد أو بشرية جديدة ، طلعت اصولها من أقاصي آسيا لم تلبث ان قضت على «البشرية القديمة» ومحقتها.

العصر الحجزي القديم

ولكن هؤلاء الاقوام الجدد ينتمون الى ما اصطلح المؤرخون على تسميته بانسان العصر الحجري القديم ، مشظّىً كان ام مصقولاً ، عاصروا منه احدث ادواره او الدور الحديث منه ، عاشوا في العراء كلما سمح لهم الجو بذلـك ، وسكنوا الكهوف ومخابىء الارض ، يعوّلون في معايشهم اكثر مـا يعولون عليه ، على الصيد والقنص ، وعالجوا استعمال حجر الصوان واتخذوا منه سلاحاً بعد صقله ، ودببوا منـه الرأس ، وحددوا الاطراف ، كما اتخذوا ادوات لهم من عظام الحيوان وقرونه ، وعرفوا النقش والحفر والرسم ، وتوصلوا الى افراغ بعض الادوات في قوالب واشكال معينة .

وقد حفظت لنا جدران المغاور والكهو ف التي سكنوهـا بعض معالم الفنون البدائية التي زاولوها على شيء من الذوق والصنعة الفنيـة ، متخذين لهم في بادىء الأمر مادة لصورهم بعض الحيوانات التي دجّنوها ، وبعد ذلك بكثير ، الجسم البشري ، محاولين جهدهم في كل ما عالجوه ان يتركوا مسحة من جمال ترسموه . ففي عالم مجهول غامض ، كل ما فيه يدعو الانسان للعجب والحيرة والتحرز ، تترصده الاعداء ، من كل جانب ، حاول الانسان ان يدرأ عنه الغوائـل والمخاطر فيتخذ سلاحاً له كل ما تصل اليه يداه ، واداة لخدمته ، كل مـا يعينه على العيش . تعرّف الى العلائق والاصداف والاساور فاتخذ منها زينةً له وحلية كما اتخذ من بعضهـا تعاويذ واقية ورقى . وتوصل الى صنع بعض دميً ، بشرية الصورة ، انثية الشكل ليرمز منهـا الى الخصب والانسال ، واصطنع صوراً شتى للحيوان يدرأ بها العين الشريرة والسحر الذي كثيراً ما وقع تحت تأثيره . وهو في كل هذا يحاول فرض سيطرته على الحيوانات المفترسة ، كما يحاول تدجين الانواع التي يفيد منهـا في معاشه او تؤمن له الصيد الوفير . وكان يشارك باحتفالات ومناسك دينية يترأسها سحرة ينصرفون اليها في المغاور المظلمة . وهكذا من تعاطيه اعمـال السحر واستسلامه لطرق السحرة ظهرت الفكرة الدينية عنده ، وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلاهما بمسحة من الفن البدائي .

ويؤيد اكثر من اكتشاف علمي ان الانسان ، منذ العصر الحجري القديم ، أخذ يهتم باطراد صاعد ، بموتاه وتأمين دفنهم ، وإعداد اجسادهم وتجميعها في محـــل معين وبحاجاتهم إذ تراه يَذُرّها بالمَغْرَة ويمدها بالحلي والزينة والتقادم وببعض اللحوم . وقد تحددت معالم هـــذه المناسك وعم استعمالها ، بعد ان كانت في الاصل تعبيراً عن مشاعر الانسان يتقي بها مغبة الثأر والانتقام المتوقعين . إلا ان هذه المراسم لم تلبث ان اصبحت عزيزة عليه كريمة عنده ، إذ رأى فيها ايماناً بعقيدة الخلود والبقاء . وهكذا نرى كيف ان السحر افضى بالانسان الى ابعد مما كان يتوقع له : الى عبادة الموتى وتكريمهم .

من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد

استطال امد العصر الحجري القـــديم في اوروبا اكثر منه في اي مكان آخر ، ولا سيما في غربي جنوبي فرنسا ، وفي الغرب الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية . واستقرت الاجناس البشرية فيـه على عروق مشهورة كالعرق المغدلاني ، والعرق الازيلي . الا ان ظهـــور اجناس بشرية أخرى ادى الى زوال العروق التي كانت تنهض بهذه الحضارة او الى إقصائها وابعادها الى اماكن نائيـة صعبة المنال ، كافريقيا مثلاً حيث عجزت عن القيام باي دور بارز . فلم يحدث هذه المرة ، اقـله في اوروبا ، تطور محلي ، بل غزو جارف طلع من الشرق المتوسطي قادمـــاً من الجنوب ، ومن جهات اخرى اقصى ولا شك ، من الشمال الشرقي . فلم يؤلّف الغزاة القادمون ، كما في الماضي ، بشرية جديدة ، بل كانوا من صميم الجنس البشري السائد الذي تمكنت بعض عروقه ، في اماكن معينة ، من التطور في المظهر الخارجي وفي الحضارة . وقد استطاعوا ان يؤلفوا ، من الوجهـة العرقية جماعات كبيرة متباينة بينها الطوائف المتوسطية والجبليون (القوقاس – والألتاي) والطوائف الشمالية . والاهم من هذا كله ، هو ان الحضارة استطاعت في عهود متباينـة بتباين البلدان التي قامت فيها ، ان تتجه اتجاهاً مغايراً للاتجاه الذي سارت فيه حضارة العصر الحجري القديم . ويجب الا يغرب عن البال ان كلا الحضارتين عرفت اتصالات سابقة فقـــد تعرضت حضارة العصر الحجري القديم لتسربات ومؤثرات طارئة ، كما انها اعطت لدى زوالها الحضارة التي عقبتها عادات واعرافاً تتعلق بالجنائز والمآتم . ومع ذلك فقد كانت حضارة جديدة لم تلبث ان انتشرت وعم استعمالها .

وهذه الحضارة الجديدة ، عرفت لدى المؤرخين بحضارة العصر الحجري المصقول . فقد لبث الحجر العنصر الرئيسي الذي استمد منه الانسان اجهزته وادواته الضرورية ، الا انـــه حجر اقسى من الصوان ، آثره الانسان لما فيه من صلابة بعد ان عرف كيف يصقله ويهذبه كما يشاء . وقد سجل الانسان مراحل عديدة في تطوره الصاعد، فقد اصبح راعياً وتمكن من تدجين بعض الحيوانات ، ولم يلبث ان اقبل على الارض يحرثها ويستنبتها ، فقطع الاحراج وعزف على التربة يستخلصها من الاعشاب المؤذية ، واخذ يتخير بعض فسائل الزرع يستجيد منهـــا الانواع ويستطيب كريم الاصل حتى استقر به المقام ، فتحضر ورأى نفسه مرتبطاً الى حد بعيد بمـــا

لديه من زرع وضرع وبما يحرث من اراضٍ وحقول. واخذ في بناء اكواخ له ومنازل لسكناه، ثم تألّب جماعات ما لبثوا ان ألّفوا مجتمعاً يربط بين افراده روابط من العمل المشترك والدفاع المشترك عن سلامة المجموع . واتخذ له من صوف الحيوانات ومن بعض الالياف النباتية ألبسة خاطها ملبساً له استبدل بها جلود الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل . وعرف كيف يتخذ له مادةً مما تقع عليه عينه من معرّش النبات والقصب ومن الدلغان الممزوج ليصطنع من هذا كله السلال والخزف .

ثم تعلم كيف يستخدم خامات المعادن كالنحاس والذهب وكيف يستخرجها من مزيج الفلزات ، ثم توصل تدريجياً الى اخلاط كثيرة ، كالخلط بين النحاس والقصدير لاصطناع الشبهان او البرونز . وبعد ذلك نرى الحصان والعجلة والحديد في خدمة الانسان .

كلها خطوات تصاعدية في سلّم الحضارة تدعو للاعجاب ، وتشحذ من الانسان الرغبة في المزيد . نود ولا شك لو نستطيع تحديد هذه المعالم في مدارج الرقي والتطور والتأريخ لها واقتفاء ما كان لها من اثر بيّن ومن شيوع كرّس استعمالها . ولعل اكثر هذه الكشوف واقدمها كلها هي التي طلعت علينا بها مدنيات الشرق الاوسط ، ولا سيما مدنية مصر وبلاد ما بين النهرين ، وهما من اخصب بلاد العالم طراً ومن اكثرها دعة للحياة البشرية . اما الحصان ، فقد وصل الينا من مناطق ابعد وانأى ، اما الحديد فان كان صنعه التقني يعود اصلاً للشرق ، الا ان ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من المسير جداً تطور هذه الصناعة في تلك المنطقة . فالاكتشافان المذكوران يسجلان معاً تطوراً جديداً : هنا معاصراً وهناك لاحقاً . وقد طلعت علينا اقوام جديدة جاءت من الشمال او من الشرق الشمالي : من التركستان والقوقاس والبلقان، تتمثل في غزوات الهند والاوروبيين الذين في غزوات متباعدة متلاحقة ، اخضعوا تباعاً : الهند وايران وآسيا الصغرى واليونان . وقد أخذ الشرق الاوسط يشعر بوطأة هذه الغزوات ابتداءً من سنة ١٤٠٠ حتى اواخر الألف الثاني قبل الميلاد فزعزعت اركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عهد بعيد ، في هذه الاقطار المحظوظة . اما الغرب الاوروبي ، فقد وصلت اليه صناعة النحاس والشبهان من الجنوب والجنوب الشرقي ، وعرف معها ان ينشىء له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع . ولم يكن اثر حضارات الشرق الكبرى بلغ الغرب باستثناء بعض المهارات التقنية . فمن الشرق ، دخلت الغزوات والحضارات اوروبا مارةً بوسط القارة وذلك ابتداءً من الألف الاول قبل الميلاد ، كما يظهر من آثار بلدة هولستات في النمسا ومن آثار بحيرة لاتين في سويسرا وكلها تعود الى عصور ما قبل التاريخ في اوروبا .

غزوات وتهجين

اذا ما اردنا ان نتقصى بالتفصيل معالم هذا التطور الذي رسمنا بايجاز مراحله الكبرى، كان لا بد لنا من ان نلاحظ هنا هذا العدد العديد من الغزوات التي انقضت على اوروبا من اقاصي آسيا او من سهول اوروبا الشرقية التي تعتبر بحق امتداداً لها

باتجاه الغرب . فلم نعرف غزوة مما نالت من النجاح ما نالته الغزوة التي حدثت في اواخر الدور الحجري الوسيط المعروف بالعصر الموستري واوائل العصر الحجري الاعلى . وهنالك غزوات اخرى انطلقت في ما بعد متبعة لمرقاً اخرى ، فبلغت مشارف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي معاً . وقد لاقت في سيرها صعوبات كانت تشتد مع مرور الزمن ، إذ وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حضارات اكثر تطوراً، واقوى على المقاومة. غير ان تزعزع اركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد ، وانهيار هذه الامبراطورية في ما بعد ، في القرن الخامس ، يدلان على ان ليس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها .

ولذا كان لا بد لنا من العودة الى ما قبل التاريخ لنعثر على « عرق » بشري أصيل ، يراد منه فريق كبير من الناس لهم ملامحهم الخارجية السوية الطابع . ان جيل العصر الموستري هو آخر من يستجمع هذه الصفاتية او من فرض وجودها . وهذا الجيل هو جيل شقيق لانسان العصر النياندرثالي ، باستثناء بعض الفروق النادرة التي تؤلف بحد ذاتها فوارق ثانوية لا تؤبه لها. ولكنّ انسان العصر الحجري الاعلى يمثل هو نفسه انساناً هجيناً كما يسميه مرسلين بول . وقد تكاثرت في ما بعد عمليات التهجين او التضالب ، مع تتالي الغزوات المتعاقبة ، بحيث لم يبق لكلمة « عرق » اذا ما أسقطنا من مدلولها الميزة الخارجية سوى الطابع او النموذج الذي يفرّد الحضارة .

وحدة الحضارات وتنوعها

هنا يجب ان نلاحظ ان الانتقال من حضارات ما قبل التاريخ الى الحضارات التاريخية يجعل المدى التاريخي للاخيرة منها يضيق وينكمش . فلم تتكرر ابداً الوحدة التي ميّزت الدور الموستري المعروف بالعصر الحجري الوسيط، او طلائع الدور الاعلى للعصر الحجري القديم. وكانت هذه الحضارات اوسع الحضارات التي عرفتها الانسانية انتشاراً وذيوعاً. فهل من عجب في الأمر وهو واضح كل الوضوح ؟ فالطقس الجميل يحفز للظعن والريادة اناساً همهم العثور على الاراضي المطيرة ، يكثر فيها القنص والصيد او اقتفاء قطعان الحيوان التي تؤم الحديث من المراعي الخصبة والارض المخضلّة . ثم يأخذ الانسان يألف تدريجياً الاستقرار في بقاع ورقاع من الارض تساعد طبيعتها الجغرافية طوائف من الناس على الاقامة فيها، ولا يلبث بعد ان أمن على سلامته، ان ينقطع لحراثة الارض وفلاحتها يطلب من خباياها رزقه الحلال .

ومع ذلك ، فقد تطرأ ادوار تسيط فيها وحدة تعم شطراً كبيراً من الناس ، كما لاحظ ذلك علماء الألسُنِيّة ولا سيما من يعنون منهم باسماء الامكنة الجغرافية . من ابلغ الأمثلة على ذلك ، الاسل اللغوي : « *Car* » الذي يعني كلمة صخر او حجر . ومن هذا الاصل اشتُقّت المفردات او الكلمات : *Carpathes , Karawanken , Carso , Crau , garrique* ، وغير ذلك من الاوضاع اللغوية . ومن هذا الأصل الألسُني جاءت الكلمة العربية قلعة ، والتركية كاله

والليتوانية *gala* وكلها تعني في هذه اللغات : القلعة او الحصن . مثل هذه الكلمة وغيرهـا من المصطلحات اللغوية الاخرى ، مشاع بين بلدان كثيرة ، وكلها دواثر او بقايا لغة تقدمت بكثير اللغة الهندوالاوروبية التي درج استعمالها في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من القوقاس الى جبل طارق فبحر البلطيق. وهنا لا بد لنا من ان نتساءل ما عسى ان تكون هذه الاقوام او الشعوب التي في عهد العصر الحجري الجديد ، او في عهد اسبق واقدم ، تعارفت وتفاهمت فيما بينها بهذه اللغة ، مع العلم ان اسماء الامكنة الجغرافية ومسمياتها تبقى على الالسنة يستعملها الناس ويجرون عليها حتى بعد زوال الحضارات التي مكنت لها في الاستعمال . كذلك نرى مثل هذه المفارقات والمواصفات تظهر في الحضارات التي سبقت الحضارات السلالية في مصر وبلاد ما بين النهرين وبين الحضارات التي ازدهرت فيما بعد حول هارابا وموهنجو – دارو في حوض نهر الهندوس . فالاعتقاد بانها تحدرت من جذع واحد لا نزال منه في جهل مطبق ، ليس بكفر .

وهكذا ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قِدَم ظهور الانسان على الارض ، فان الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرّد وبالتالي بالتمركز جنباً الى جنب ، في حيز ضيق الا بصورة تدريجية ، وفي عهد قريب منا جداً . وقد برز هذا التنوع واصبح الطابع المميز لحياة الناس في التاريخ القديم ، ردحاً طويلاً من الزمن. وقد كانت هذه الظاهرة امراً لازماً . فمنذ ان اخذت فئات من الاقوام البشرية في الاستقرار والتحضر ، راحت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضته لها مقراً وفقاً لعوامل زمنية ومكانية ، خضعت لها ، ولمؤثرات حسية وخلقية عرفت بها ودرجت عليها. والحق يقال ، ان التفتت الذي ألمّ بالحضارة الوحدانية وتشعبها الى حضارات متعددة ليس إلا النتيجة المنطقية للرقي الذي حققه الانسان ولتطوره الصاعد الذي زاد حياته المادية والعقلية تعقيداً وتشابكاً ، ووفر له اسباب التباين والتغاير والتفرد . فربّ برعم لم يؤبه له عند ظهوره وبروزه كان سبباً في قيام ساحات من الغابات الظليلة والاحراج الغضة .

ليس لعمري من مدنية قامت وعاشت في قوقعة مطبقة لم تتأثر في كثرة او قلة بما تقدمها من الحضارات التي ازدهرت من قبل . وقد يكون خطر لبعض هذه الحضارات مثل هذا الشعور من الاكتفاء الذاتي . من ذلك مثلاً الحضارة الفرعونية القديمة التي لم تستطع ان تحقق مثل هذه المثالية وان كانت أكثر المدنيات اقتراباً منها . فكل هذه الحضارات دونما استثناء عولت على مصنوعات ومحاصيل جاءتها من الخارج . ويعتري المرءَ الدهشة عندما يرى، منذ اقدم العصور ، المسافات الطويلة التي كان يقتضيها وصول بعض المواد الاولية . صحيح ان معظم هذه المواد المستوردة كانت خفيفة الحمل والوزن يستعملها الانسان في حليه وزينته لندرتها وغلاء ثمنها . من هذه المواد مثلاً اصداف مقاطعة التورين ، في العصر الحجري القديم الاعلى ، والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطىء بحر البلطيق، والحديد الذي اتخذت منه ادوات الصياغة في مصر وبلاد ما بين النهرين . وصناعة البرونز او الشبهان اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها الى بلدان الشرق الادنى واقطاره . فالتبادل التجاري كان سبباً في اقامة اتصالات

مباشرة . والمهم في هذا كله ان هذه المبادلات التجارية والاتصالات التي بعثتها وهيأت اسبابها ، تمت واستمرت دون ان تمس ، بشكل محسوس ، اصالة كل هذه الحضارات التي انتظم عقدهـا واستبطر شأنها . والظاهر هو ان التاجر والبحار في نقلها السلع التجارية ومقايضتها بها ، كانوا اقل اهتماماً بنقل المهارات الفنية والتقنية ، واقل منها ، معاطاةً بالامور الفكرية والروحية . وهنالك امثلة مستمدة من الازمنة التالية للتاريخ القديم ، يمكن ان يستدل بها على أنّ تهما من ذلك إذ يفقدان بها سبب وجودهما . فالتبادل انما يعني التباين .

الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة

هل عاد هذا التجزؤ الحضاري الذي ميز التاريخ القديم بالضرر على غير التجار ؟ فان لم يعـاود الناس اخبار تلك الوحدة التي زالت من الوجود بعد ان عجزوا عن الاحتفاظ بذكرها فقـد يكون راودهم الشعور بان حضارة مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معاً بسلام ؟ قليلة جداً هي الاصوات التي عبرت متأخرة عن هذه الامنية ، وهي امنية كان علينا ان ننتظر طويلاً ظهور من يعبر عنها بجلاء ووضوح كالاسكندر الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . والمحاولة القصيرة الامد التي تمت على يدي الفاتح المقدوني لم يقم من يحاولها من جديد رسمياً الا الامبراطورية الرومانية في القرن الثاني للميلاد التي نسجت على هذا المنوال دون ان تعلن عنه او تفصح به .

فالتاريخ القديم يعج بالامبراطوريات ، كما يفيض باخبارها ومصائرها وارتفاعها وهبوطهـا الى غير ذلك مما يدخل في صميم التطورات السياسية . وكل من هذه الامبراطوريات التي طلعت عبر التاريخ : من مصرية ، واشورية ، وفارسية ، ومقدونية واخيراً رومانية كان يبز اللاحق منها السابق باتساع الرقعة وضخامة السلطان ، بحيث يدخل في روع المستقرىء ان نقطة الانطلاق اقوى في اللاحق منها في السابق وان الاندفاع كان في كل مرة يقترب اكثر فاكثر ، من الهدف المشترك الذي وضعه الفاتحون نصب اعينهم ، الا وهو الامبراطورية الشاملة . وكأن بهذا الجهد الموصول لتحقيق هذا الهدف السامي تعبير عن نزعة حاش بهـا قلب الانسانية الا وهو تحقيق وحدة شاملة ليست جغرافية فحسب بل بشرية ايضاً .

وبالفعل ليس شيء من هذا كله . فمهما كانت العوامل المختلفة المتفاعلة دائماً والمتشابكة ، التي ادت الى ظهور هذه السلطنات الشاسعة المتتالية ، فلا نلمس في أيّ منها الرغبة الصادقة في نشر حضارة الفاتح وفرضها على المغلوب ، اذ ان اهتماماً من هـذا النوع لا بد ان يتبلور ويبرز باعمال واجراءات موضوعية لا نجد بالفعل شيئاً منهـا . فالفاتح او الغازي الذي تم له الفتح ، كان يرى في الحضارة التي ادت به الى النصر المبين خير الحضارات وامثلها كما رأى فيها سر تفوقه وتعاليه ، يحرص عليها ويصونها من كل عبث وانفعال ويحتفظ لنفسه بالمنافع الجزيلة التي امنتها له . فلم يحاول يوماً ان يصطنع المغلوب على امره او ان يتمثله او يتقرب منه تحت ستار او مظهر من مظاهر التشبع والدعوة . فالفاتح انما يهمه من الفتح الفوز بالاعـداء والاسلاب ، ولذا فلم

تهتم الامبراطوريات التي قامت في التاريخ القديم يوماً بامتلاك القلوب والنفوس .

من الطبيعي جداً ان لا تخلو مساكنة الغالب للمغلوب وتعايشهما معاً زمناً طويلاً من تفاعلهما معاً وانفعالهما بمؤثرات وعوامل مشتركة. فبالرغم من تمسك المصريين مثلاً وتشبثهم بعناد بتقاليدهم الموروثة ، في كلا الوضعين او الحالين ، فقد كانت تظهر عليهم معالم هذا التفاعل المتبادل يحملون اثره ظاهراً . غير ان الحصول على نتائج عميقة محسوسة من جراء هذا التعايش الطارىء فقد كان يقتضي له أمد طويل من الزمن لم يتوفر لكثير من هذه الامبراطوريات التي كانت تتهاوى وتنهار سراعاً . واذا اعوز هذه السلطنات الوقت الكافي الذي يتطلبه اي تطور من هذا النوع كان لا بد للحكومة المركزية ، والحالة هذه ، ان تحاول بنفسها تحقيق هذا التقارب وتستحث منه الخطى بادارة حازمة .

الا ان مثل هذه الفكرة لم تخطر يوماً على بال احد قبل الاسكندر . فمجرد طروئها في ذهنه ومحاولته الصادقة لتحقيقها وتحييزها قولاً وفعلاً ، كل ذلك يضفي على الفاتح المقدوني ميزة خاصة تفرّده وتميزه بين كبار الفاتحين . ومن المفيد مع ذلك ان نلاحظ هنا ان هذه الفكرة لم تخطر على بال الفاتح اليوناني في بدء حملته على الفرس بل نشأت عنده إبان الفتح والحملة العسكرية. ولذا جاز لنا ان نعتقد دون ان نشك باخلاصه في ان الفكرة تبدت له وسيلة من وسائل التغلب على المقاومة العنيدة التي لقيها عند خصمه . الا ان حنق رفاقه وتململهم امام صعوبة المطلب ، وموت الفاتح فجأة كل هذا حد من التجربة وانتقص من امكانيات تنفيذها بالزخم المرتجى والمدى المرغوب .

وقد قام بين خلفائه ، هنا وهنالك ، من عاود الكرة ، اما مدفوعاً اليها كرهاً عنه بقوة الاستمرار ، وبالتالي بخشية ولين ، إمّا بتوعية اكبر وادراك اوسع وبنشاط اوفر وعلى نسبة اكبر ، ولا شك انهم رأوا في الكرة يعاودونها من جديد وسيلة مثلى لترسيخ ما اقاموه من سلطان سياسي وعسكري فعملوا على تدعيمه بملاط الوحدة الروحية .

وها هي رومة تطل اخيراً علينا فتنشىء امبراطورية تمتد اطرافها من الشرق الى الغرب هي اقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم واوسعها طراً واطولها مدى ، اوشكت تتحقق من ضمنها وحدة الحضارة . ولكن رومة لم تسعَ الى هذه الوحدة ، بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة : ادارية وسياسية ، وعسكرية واقتصادية ، حتى ودينية . فالمسؤولون فيها لم يعتنقوا الفكرة ، ولم يعاشوها الا متأخرين جداً ، بعد ان اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية . ثم من الجائز ايضاً الافتراض انهم لم يتذوقوا النتائج التي ادت اليها هذه الجهود الفورية اولاً ثم المنهجية . الا انه لا يجوز الانتقاص من اهميتها والحط من شأنها . ولكن ما عسى ان تكون افضت اليه هذه الجهود وهذه النتائج لو لم تستعجل غزوات البرابرة ، مع عوامل اخرى تضافرت وتفاعلت بها ، انهيار مثل هذه الوحدة البشرية الواسعة التي اوشكت ان تتم ؟

لتاريخ الحضارات التي ظهرت في العصور القديمـــة طابع مؤثر . فقد تفتح من المدنيات المسكونية البدائية حضارات مختلفة اخذت بالتطور والتكامل الى ان ازدهرت ورالت الواحدة تلو الاخرى . وقد اسهمت كل منها في نماء التراث البشري المشترك . ومن جهـــة اخرى فالحضارات الكبرى التي نشأت واستشرى امرها ضمت في كينونتها ممالك ودولاً تعايشت معاً وتفاعلت على فترات من تطورها . وهكذا بدا العالم القديم وكأن قوة خفية تحركه وتدفعه من حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهراً بعد دهر . فالحضارات تتعاقب وتتهاوى بعد ان تحاول كل منها ان ترفع درجة اعلى من سابقتها ، صخرة الوحدة التي آل اليها امرها فترة من الدهر . ولا تلبث الصخرة ان تهوي الى الارض محطمة كل سيء في انهيارها المدوي .